الممثل بالداخل

شــكري المــيدي أجــي

لم أعد ممثلاً – اليوم – إلا إنني لم أكف – يوماً – عن التمثيل. هذا ما حدث – بضبط – عندما التقيتُ بصديق قديم – صحفي يكتب عموداً أسبوعياً لصالح مجلة الإذاعة والتليفزيون – آخر مرة التقينا فيها – كان قبل خمس سنوات – كنتُ – عندها – في الخامسة والأربعين – عمره الحالي – إلا أنه بدا أصغر مظهراً من قبل، بالرغم من شعره الفضي اللامع، وخطوط صغيرة عند حافتي عينيه بمثابة تجاعيد، ظلتُ ابتسامته طفولية غامضة – أكثر من قبل – ابتسامة تتفجر شباباً.

جلسنا داخل حديقة ليستْ بعيدة عن مبنى الإذاعة والتليفزيون. بعض الصبية – بالقرب منا – يغسلون السيارات بجد، سواعدهم النحيلة مكشوفة، والمياه تسيل محملة برغوة الصابون تمر بجانب كشك لبيع القهوة، بسيط، يليق بالمكان. لم يكن الهدوء هو المهم، الحركة والصخب، خلقا إمكانية الحديث ضمن دوامة من اللامبالاة. شخصان يتحدثان فحسب، لا يهم!

"تبدو أصغر من عمرك". هتف بأسلوبه القديم. قبل خمس سنوات استغربتُ من سرعة رفعه للكلفة وهو ما لم أفعله خلال لقائنا الجديد، بدا لي تصرفه عادياً للغاية، كأننا لم نفترق قط.

"حسناً رأيتك قبل أيام".

هكذا قال.

"حقاً؟".

"بالماجوري، كنت مستعجلاً كما فهمتْ".

"ربما كنت، صحيح".

"ياه، لم نلتق منذ سنوات".

"صحيح، لم نفعل".

"هل تسكن في الماجوري".

"لا".

"لأنني رأيتك بصحبة فتاة، ماذا كنت تفعل؟".

"لا شيء، لا أتذكر جيداً". كنتُ أتذكر جيداً، كنتُ سعيداً. لا شك بأنه رآني – أكثر من مرة – وأنا أوصلها إلى هناك، ربما كان يعرف أيضاً بأنني كنتُ سعيداً للغاية بينما كنتُ أوصلها. لأي سبب أنكرتُ سعادتي بإيصالها، تصرف غريب دفعني إلى التفكير – مجدداً – حول تصرفاتي، فيما كان يتحدث.

قبل مدة تعرفتُ على فتاة، كانتْ صدفة غريبة جعلتني مختلفاً. أنا في الخمسين، زوجتي توفيتْ قبل أكثر من عقد كامل، ربيتُ ابنتي – الوحيدة – التي تزوجتْ منذ أشهر، هي الآن في رحلة دراسية إلى ماليزيا، أخبرتني بأنها ستسافر مع زوجها إلى أمريكا حيث سيكملان دراستهما، أشياء كثيرة حدثتْ مؤخراً، وفي إحدى المساءات تعرفتُ على فتاة بالمصادفة. كانتْ واقفة على جانب طريق النهر. جلباب أسود مخصر، غطاء رأس رصاصي اللون، بجسد ممشوق، واقفة لوحدها، سمراء. تلك اللحظة بدتْ مهمة. كنتُ – عندها – ضمن جولتي اليومية عبر شوارع المدينة عندما رفعتْ يدها وهي تشير طالبة التاكسي، كما فهمتْ.

كانتْ الساعة تقارب السادسة، وهي الفترة التي أُنهي خلالها جولتي عادة. في ذلك اليوم كنتُ بدأتُ أشعر بالحنين لفعل أي شيء أكثر أهمية من التذكر اليومي لتفاصيل حياتي. بعض اللحظات – مثل هذه – التي تبدو مهمة. صعدتْ بهدوء، طلبتْ مني أن أوصلها إلى مستشفى بنغازي المركزي. أمام المستشفى سألتني أن كنتُ مستعداً لانتظارها وهو ما وافقتُ عليه بحماس مغلف. انقضتْ ساعتان. عادتْ بعدها تعبق مثل زهرة برية. استغرقنا ذلك اليوم في التجوال من بيت للآخر. اعتبرتها زيارات ذات طابع مجهول. كلما عادتْ كانتْ تبدو كأنها ازدادتْ نضارة، لكنني ظللتُ صامتاً على الدوام. عندما أوصلتها أخيراً لمنزلها في الماجوري منحتني مبلغاً قدره خمسين ديناراً. كان ذلك إعلاناً رسمياً بتحولي لسائق تاكسي. سألتني إن كنتُ راغباً بالمجيء في اليوم التالي من أجل جولة أخرى مماثلة، وافقتُ بهزة من رأسي. نزلتْ من السيارة. أغلقتْ الباب. طوال طريق العودة بدأتُ أحس بتوتر عميق ووحدة بالغة، تنفستُ بعمق رائحة جسدها الدافئ ثم واصلتُ القيادة بثبات ناحية بيتي.

عندما عدتُ إلى البيت، كانتْ الساعة تشير إلى العاشرة. استحممتُ سريعاً، استلقيتُ بعدها على سريري عارياً ووحيداً أتطلع نحو السقف، مستعيداً ما قاله الصحفي.

"قبل مدة بدأ صديق بفرز مكتبته توقع ماذا وجد فيها؟". عندما لم أتوقع أضاف قائلاً "وجد شريط فيديو مسجل عليه **فيلم قصير** سيكون مفاجأة بالنسبة إليك! صدقني، أنت اعتزلتُ التمثيل، لكنها ستظل مفاجأة جميلة".

مرتْ الساعات بسرعة مثل **رقصة على الجليد**. صباح اليوم التالي ارتديتُ ملابسي. قمتُ بإعداد بيض مقلي. جلستُ – ربما للمرة العشرين ألف وحيداً – لأتناول البيض المقلي بلا خبز مع رشفات الشاي البارد، متصفحاً مجلة فنية أمريكية نشرتْ حوارات متسلسلة حول تأثير بعض الأفلام على حياة ممثليها. أحد الممثلين تحدث عن تأثره بدوره في **فيلم رعب** قام بتمثيل الدور الرئيسي فيه حين كان في الثامنة. ممثل آخر صرح بأنه عاش كوابيساً استمرتْ معه منذ بلغ العشرين، بسبب تمثيله دور مغتصب أطفال وقاتل متسلسل. أمتلك قرابة سبعة عشرة عدداً من تلك المجلة. حوارات لثماني ممثلين باختلاف شخصياتهم يتحدثون بإسهاب عن تجارب نفسية مروا بها عقب أفلامهم. الحوارات شكلتْ ما يمكن تسميته بالركيزة القوية لفهم الذات. لم أكن أدرك – آنذاك – بأن الحوارات سيكون لها دوراً غامضاً في حياتي، بدتْ كأنها علامة مهمة. تخلصتُ من هذا الانطباع سريعاً. بالرغم من إنني تركتُ التمثيل – منذ فترة طويلة – إلا إن شعوري المتجدد حيال فن التمثيل أخذ يزداد على الدوام. مؤخراً، عرفتُ بأنني ختمتُ أساليب التمثيل للأبد – كاللعنة – في داخلي. فأنا مثلاً لم أسمع شيئاً من حديث الصحفي – داخل الحديقة – لكنني ادعيتُ بأنني منتبه إليه تماماً، كما كنتُ أفعل سابقاً - قبل خمس سنوات - حين كنتُ ألتقي بأي صحفي، ليس للسن علاقة بما أنا عليه من شرود.

"حسناً، ننتظرك غداً عند الثامنة". قال الصحفي مختتماً حديثه. فهمتُ بأنني مدعو لحفل عشاء سيُقام

في منزله من أجل فيلم قصير – كما قال – وهو ما لم يثر اهتمامي. فيض الضوء يكتسح الصالة، أتطلع إلى عمقه النافذ. لم يكن هذا فقط ما حدث مع الصحفي. كنا على مقعد واحد في الحديقة. كان يرتدي ملابس تقليدية، فيما ارتديتُ سروالاً من القماش الأسود وتي شيرت لاكوست أزرق مثل ممثل أوروبي.

"الزمن مر سريعاً".

قال الصحفي.

"صحيح".

قلتُ.

عندها قام الشاب بدلق دلو الماء على بدن الأسود اللامع لسيارتي الهونداي فاختلطتْ فقاعات الصابون المنسابة بالضوء الواهن على الإسفلت المعتم.

"قبل مدة تحدثنا عن الفن الليبي، أعتقد بأننا لم نعد نمتلك فناً". أوضح الصحفي، ضحك بعدها بشيء من العصبية، دفعتني للنظر إلى وجهه. كان جالساً على يساري وهي زاوية لا أحب النظر للآخرين منها – عموماً أحب النظر إلى وجوه الناس بشكل مباشر – بسبب هذا – ربما – بدا بالنسبة لي مختلفاً. تذكرتُ – عندها – بأن صوته أيضاً بدا مختلفاً عندما هاتفني قبلها أيام، مبدياً جدية رغبته بمقابلتي. تذرعتُ بأنني خارج بنغازي وإنني موجود في العاصمة. لم أكن مستعداً لرؤية أحد، فادعيتُ ذلك. التقينا في الحديقة بما يشبه المصادفة أو ما أردتُ أن أعتقد بأنها مصادفة.

"أود كتابة **سلسلة مقالات** عن فنانين اعتزلوا الفن مبكراً، لأعرف الأسباب". عندها أحسستُ بشيء من الاهتمام، قبل سنوات كان صحفياً مختلفاً، ربما الزمن أضاف إليه بعض الحسنات وصار يهتم بالفعل بموضوعاته، منذ أشهر استغرقتُ ضمن محاولات من أجل فهم نفسي بشكل أفضل، ربما بسبب تأثير الحوارات الأمريكية.

"أقصد أنت كنت ممثلاً، زوجتك – المرحومة– كانتْ ممثلة، كذلك والدها – حماك – مخرج مسرحي، هذا نادر الحدوث".

زوجتي – كانتْ – ممثلة بارعة، وأنا توقفتُ عن التمثيل، لكن الممثل بداخلي – لا يزال – يضج بالحياة، يُصارع من أجل الظهور مجدداً كي يعرض مقتنياته التي جمعها بنهم الفاتحين طوال العصور. زوجتي أيضاً – تضج بالحياة – في داخلي. حلمتُ – ذات مرة – بأنني حاكم أفريقي استحضرتُ – بسبب الوحدة – روح زوجتي المتوفاة، في الصباح التالي أدركتُ بأنني كنتُ أُمثل على مسرح اللاواقع. كنتُ بلا جمهور، مجرد راقص شعبي يُحلق بخذلان – في حيرة – مثل طير جريح بين أشجار البطوم. كنتُ عضواً في فرقة تؤدي الفلكلوريات الليبية على المسرح. في إحدى المرات رأيتها تدخل القاعة. توزع الابتسامات الهادئة على الجميع، ما عداي، لم أكن مهماً. دوري – في التمثيل المسرحي – كان بسيطاً جداً، راقص بائس ضمن جوقة بارعة من الراقصين. عند إحدى الآبار أظهر – غالباً– وفي الخلفية – بين الشجيرات – مجموعة الفرسان الأصحاء بملابس تقليدية تناسبهم. أدعي مساعدتها ثم أشرع بمشاغبتها بسحب القلة الفخارية الممتلئة بالماء من بين يديها، قبل أن أبدأ بمبارزة فارس فلكلوري بملابس ناصعة ضمن جولات متشنجة من الرقص

الشعبي، تنتهي غالباً بأن أبتعد عنها مهزوماً. يُسبب هذا الفعل توتراً قبلياً – **سيناريو النص** – ينتهي بتفاهم اجتماعي. إنها الأسطورة التي نعيد تمثيلها لجمالها الفائق. دوماً نقوم بإنهاء قبل أن تصل الأمور لحروب أهلية، لذا ظلتْ أسطورة غير واقعية. احتجتُ لسنة كاملة حتى عثرتُ على جلسة هادئة معها. كان ذلك بعد دعوة كريمة تلقيتها من والدها – المخرج عبد السلام البكوش – عقب **مهرجان أصيلة الثقافي إبريل 1985**– كنا خضنا نقاشاً بدا مهماً – آنذاك – حول المجتمع والمسرح الثوري. بعكس توقعاتي الأولية وجدتُه رجلاً مختلفاً داخل بيته، ليس الرجل الذي يهدر غضباً – أثناء البروفات – على خشبة المسرح، لم أجده بتلك الرهبة الأسطورية، بالرغم الشارب الكث في وجهه، التغضنات والتجاعيد التي تجعله يبدو بمظهر المخرج المدخن والعصابي. بدلاً من تلك الصورة النمطية، وجدتُ المثقف المتحكم بأعصابه ضمن نقاش هادئ، كأنه في مكان مختلف وليس داخل بيته. أتذكر بأن البيت بدا عصرياً – بمقاييس ذلك الزمن – الانفتاح الذي شعرت به أيقظ – في داخلي – رغبة جامحة ظلتْ مكتومة لسنوات.

كنتُ الضيف الثاني – وصولاً – الأول كان فيلسوفاً يسارياً، ذائع الصيت في تلك الفترة التي سميتْ ضمن كتاباته السياسة بمرحلة الركود. وجدته – بدوره – أكثر هدوء مما كان يظهر ضمن مقالاته العاصفة، بابتسامة صافية وروح نبيلة، متألقاً على الدوام. تحدثنا – أربعتنا – باقتضاب حول آرائه الواردة ضمن مقالاته الأسبوعية. أعلن بأن مسيرة الفن تبدو أحياناً أكثر تعقيداً من مسيرة الدين.

كان عشاء ظريفاً ولم يكن دسماً. استمتعتُ به على الدوام، سواء عندما حدث أو كلما تذكرتُ حدوثه. تركنا الأب المخرج والفيلسوف اليساري يتحدثان بهدوء. ملنا نحو بعضنا مثلما يحدث – دوماً – في الطبيعة. شجرتان مثقلتان بالثمار تميلان نحو بعضهما. أخذنا نتحدث بهدوء عن نفسينا. أحاديث لم أعد لتذكرها إلا بعد سنوات من وفاتها. حدث هذا عندما وجدتُ نفسي داخل شقتي الجديدة. كنتُ هجرتُ**فيلا السلام** – منزلي الأول – بعد عشرين سنة من معاناة الذكريات الحميمة بين جدرانه. اشتريتُ لنفسي شقة جديدة في الحدائق، قضيتُ سنة كاملة في إعادة تصميمها. باب البلكونة أكبر بكثير من ذي قبل، فتحت غرفتين على الصالة، هدمتُ بعض الجدران، فأصبحتْ أكبر حجماً بحيث صار بوسعي التحرك بحرية مثل أي راقص شعبي. كان لدي صديق يكره الجدران، مات في الصحراء. العتمة أخذتْ تغزو ذاكرتي ببطء شديد، ربما ينجح الضوء في تبديدها. الضوء المتدفق عبر باب البلكونة، ظل يسقط كالنهر المقدس على كل شيء. الصالة والمطبخ تتوهجان من اللامعان. يُقال بأن فيلسوفاً ألمانياً عندما جاءه الموت، أخذ يُردد بأنه بحاجة لمزيد من الضوء إلى أن مات. أصبحتُ – مؤخراً – مثل الفيلسوف الألماني، أحتاج – دوماً – إلى مزيد من الضوء، أخشى النسيان.

عند الواحدة اتصلتْ بي الفتاة. ارتديتُ سروالاً من القماش، وتي شيرت لاكوستْ – أصبح هذا لباسي الرسمي مؤخراً – اتجهتُ بسيارتي إلى شارع عبد الجليل – حيث أشارتْ – وجدتها بالقرب من محل للمواد الغذائية. اتجهنا بعدها إلى سوق الحوت بحسب رغبتها. أمام محل قديم للساعات نزلتْ، عادتْ بعد عشر دقائق تقريباً. بعدها اتخذنا طريقنا – بحسب طلبها – ناحية منطقة طابلينو، حيث قضينا قرابة الساعة نتجول عبر أزقتها الترابية من فيلا لأخرى، في النهاية خرجنا ناحية

سوق الحوت مجدداً إلى نفس المحل، قضتْ فيه نحو نصف ساعة، لنجد نفسينا غارقين في زحام طرقات بنغازي، قالتْ بأنها تريد مني أن أتجول بحسب ما أشاء، ضبطتُ التكيف بتوجيه منها بحيث أخذ يرسل تياراً دافئاً عبر السيارة. بدأنا بعدها نهيم داخل بنغازي من شارع لشارع ومن ساحة إلى أخرى، بلا هدف. كان هذا من صميم بهجتي، أتطلع إليها عبر المرآة لأجدها شبه مستلقية. وجه هادئ. أنف بالكاد معقوف. شفتان مضمومتان. كانتْ إحدى أروع رحلات حياتي. حين وصلنا مجدداً إلى كورنيش الشابي أبدتْ رغبتها بالنزول. نزلنا. جلسنا على المادة الإسمنتية بصمت صاخب، نأكل معاً شطائر البرغر وقطع البطاطا المقلية من صحن واحد. إحدى المرات لمستُ يدها من دون قصد وأنا أحاول أن ألتقط قطعة بطاطا مقلية. تأسفتْ بصوت رخيم، استمعتُ إليه بعطش شديد، ارتشفتُ من زجاجة الكولا رشفة باردة كبيرة، ابتلع لقمتي.

"أود أن أعرف ما تفعلين؟".

سألتها بقلق.

"ماذا تود أن تعرف بالتحديد؟".

أجابتْ بتلقائية، قضمتْ بعدها من شطيرتها.

"ماذا تفعلين؟".

"ألم تعرف– تساءلتْ – اعتقدتُ بأن أسلوبي واضح".

ابتلعتُ لقمتي التالية بصعوبة.

"لا أعرف".

"حسنا، من الأفضل ألا تعرف".

استقامتْ فجأة متطلعة نحو الشمس التي أرسلتْ أشعة معدنية أخذتْ تلمع على سطح المتراقص للبحر، برشاقة مماثلة تقافزتْ الأمواج نشطة.

"حسناً، خذني إلى الماجوري". أوصلتها إلى الماجوري، لم نتكلم طوال الطريق. ولم أعد إلى شقتي، اتجهتُ مباشرة إلى ساحة الكيش حيثُ أوقفتُ سيارتي. قضيتُ هناك حتى السابعة اتجهتُ بعدها إلى منزل الصحفي. كان الزحام شديداً بحيث وصلتُ بعد الثامنة، متأخراً بربع ساعة لأجده مع قرابة خمسة أشخاص، عرفتُ اثنين منهم عبر سنوات الخدمة في الفن، فيما كان البقية من رفاق الطريق الطويل حتى سن الخمسين. استقبلوني باهتمام شديد، الابتسامات ارتسمتْ على وجوههم حتى بدتْ تشع بالبهجة. أجلسوني بينهم. خلال نصف ساعة التالية أخذتُ أجيب على أسئلة مختلفة بأفضل ما أقدر عليه من صفاء ذهني.

"لماذا توقفت عن التمثيل؟".

"إنه بلا هدف".

"اعتقدتُ بأننا من يخلق الهدف".

"كنتُ مثلك،اعتقدتُ هذا يوماً".

"ماذا تعتقد الآن؟".

"الهدف هو ما يخلقنا". لم أكن أعاني مشكلة الهدف، لم أفكر يوماً في مسألة من هذا النوع، لكن الحديث قادنا على هذا النحو وقد تحدثتُ بصدق عن أفكار حقيقية لا أؤمن بها. في النهاية لم يكن الهدف هو المعني بأي شيء تحدثتُ حوله. كنتُ أنا المعني بكل كلمة تفوهتُ بها. كان الهدف هو هذا بالتحديد، أن تجد ما يجعلك صادقاً. الحقيقة ليستْ هي المحك، بل التزام الصدق.

"لسنوات بدوت منغمساً ضمن هدف واحد هو التمثيل".

"صحيح، كانتْ تلك سنوات غامضة". إننا نحتفل بأشياء لم ننجزها، إننا نمثل. قبل سنوات ألقيتُ محاضرة عن سيناريو – ظننته عظيماً – أنجزته عن ممثل يعود للساحة بأسلوب ابتسم بالغموض، سياسي أكثر منه فني. هذا يلائمني جداً. آنذاك عرضتُ المسلسل على مخرج تونسي شاب.

"إنه عمل فريد".

قال التونسي.

"أعجبك؟".

"مسلسلك عظيم، أنت بارع". هكذا أخبرني باهتمام بالغ. العمل لم يتجاوز أبداً مرحلة السيناريو. لم أرتح منذ ذلك اليوم، في ذات الوقت لم أشعر بأنني غير مرتاح – في الحقيقة – لم أعد أدرك جيداً معنى الأشياء من حولي. أرجعتُ هذا - لمدة طويلة - لأسباب مختلفة منها **تراكمات السنين من أجل حيازة الواقع**. عبارة مهمة وجدتها ضمن إحدى مقالات الفيلسوف اليساري، ووجدتها مرة أخرى داخل الحوارات الأمريكية، وفي إحدى التقارير الصحفية الأمريكية، ضمن الفقرة الثانية وجدتها تفسر عوامل اقتصادية بدتْ مهمة – يا للغرابة – كانتْ التقارير من ترجمة الفيلسوف اليساري في سبيل إظهاره مأسوية **المجتمع الأمريكي** وبؤسه من الداخل.

بعد عشاء دسم، وقف الصحفي منبهاً بشكل درامي بأن الوقت قد حان. باستقامة رئيس السيرك أعلن بأنه يمتلك إحدى أندر الفيديوهات ضمن الفن الليبي، ربما هي أول وأكثر محاولة مهمة في تاريخ الفن الليبي. بين الكلمات والابتسامات المشجعة، انتزع شريطاً من إحدى الأدراج، قام بتشغيل التلفاز وجهاز الفيديو، فأدرج الشريط. جميعهم بدوا مهتمين بما يحدث ضمن الغرفة، لكنهم ظلوا ينظرون ناحيتي مراراً، فأدركتُ بأنني المعني فعلاً بالأمر. يومي الذي بدأ بداية شبه عادية، تحول مع تقدم ساعات اليوم إلى ما يشبه يوماً غير عادي، كما بدأتُ أشعر داخلياً، بوجود حدث غامض يُحاك حولي، انتابني شعور غامض ومخيف بعض الشيء. تابعتُ ما سوف يُعرض على الشاشة، لأجد

الأعجوبة. مرتْ الشعارات بهدوء، ضمن بحر من الظلمات، موسيقى هادئة صمتتْ سريعاً، لتظهر صحراء شاسعة، رمال وشمس، بعدها شاهدتُ ساقين من الخلف، لشخص يرتدي ما يشبه تنورة حمراء عليها عقصات طولية. دارتْ الكاميرا بهدوء نحو الأعلى. ظهرتْ الخيوط الجلدية للأحذية البنية ملتفة بتداخل حول الساقين المفتولين.

عندها شاهدتُ نفسي شاباً بأنف مدبب. تطلعتُ بإمعان إلى الشاشة – كنتُ أنا – مرهق بلا شك أواصل المشي داخل ما ظننته – دوماً – سراباً. مرتدياً ملابس رومانية، بركبتين مكشوفتين، بدتا باهرتين – إنه أنا قبل ثلاثين سنة – بدوت مثل جندي روماني هارب أو ناجي وحيد من إبادة جماعية. الفيلم قصير يصل طوله لأربعين دقيقة تقريباً. مشهد مدهش لمناجاة تعتمد على متوالية الصور، شمس، رمال، سراب، عرق، أشباح، قبائل غير واقعية، أحلام هاربة، طفولة بين الأعمدة الضخمة، ضحكات نسائية، ركض بين الكروم، دماء وصراخ، هرب بين طيات الليل نحو المجهول، نجوم تتساقط، طوال الطريق كنتُ – خلال المشي المنهك – ألقي بقطع من مقتنياتي وملابسي حتى أصبح عارياً تماماً مثل مصارع روماني، ابدأ بعدها مناجاتي الأخيرة. كائن بلا ذاكرة – أنا – لم أتذكر تفاصيل هذا الفيلم مطلقاً. عندما خرجتُ من عند الصحفي، كان رأسي بدأ يعصف.

خلال لقائي بالفيلسوف اليساري– قبل عشرين سنة – تحدثنا حول دور المسرح والفن، كان مهتماً بالفكرة جداً – آنذاك – ظهر توتر عميق ضمن المجتمع في سبيل استيعاب تداعيات التحرك العسكري الضخم، محاولات مريرة من أجل إيجاد القيمة الفعلية لهذا التحرك، بحيث يمنح معنى جديداً لكل فكرة ضمن مؤسسات الدولة، كفنان بدتْ المسألة مختلفة جداً – بالنسبة لي – بدتْ تحدياً لأغلب أفكار السياسية التي تم تكريسها - آنذاك - حتى تلك التي تم نسيانها. هذا التناقض هو ما خلق نوعاً من التمثيل الجماعي، الادعاء بفهم أشياء غير مفهومة بالمطلق. استخدام أساليب مسرحية لإبداع **حالة إبهار** ضمن المجتمع بالرغم من عدم الاقتناع بها. كان التمثيل في الشارع، داخل المنازل وفي المؤسسات الحكومية كما كان السخط. لا أحد يعلن غضبه. الجميع كان يُمثل دوره ببراعة تامة. التمثيل الأشد إبهاراً بحسب القصص المتداولة أخذ يجري ضمن ساحات القتال، الصحاري الجنوبية، كان هذا مدهشاً.

"الواقع هو المؤثر الفعلي في النصر أو الهزيمة، الواقع الذي نعيشه في البلاد وليس ما نعيشه في الساحات. الحرب هنا في شوارع المدن الهادئة".

هكذا قال الفيلسوف، خلال الجلسة. كانتْ تلك فرصتي من أجل الخروج بشيء من الفهم. لم أتوقع يوماً أن ألتقي بالفيلسوف الأهم في الدولة لفهم تعقيد الوضع في مجتمعنا. كنتُ انتهيتُ من تكوين رأي خاص بي تجاه الأحداث الجارية من خلال الأعمدة الأسبوعية التي تنشر ضمن الصحف العالمية المهربة ومن قنوات الأجنبية داخل الفندق الصغيرة للدول المختلفة التي كنتُ أزورها خلال سفرياتي. لسنوات ظننتُ بأنني امتلكتُ رؤية شاملة حول **المسألة الليبية** كلها. بالرغم من أن رؤيتي الفنية – ظلتْ قاصرة – بلا دعم واقعي.

"أعتقد بأن التعقيد مرتبط بالنظرة السياسية حالياً".

هكذا قلتُ.

"ماذا تعني بالنظرة السياسية؟".

"إمكانية هزيمة أي جيش داخل الصحراء ليستْ إلا مسألة وقت".

"أتفق معك". قال الفيلسوف وهو يقترب مني ثم أضاف "لكن دورنا الصغير يتمثل في محاولات **حصر الضرر** المحتمل وقوعه". هز رأسه قليلاً ضمن لحظة صمتْ أضاف بعدها "بالرغم من ذلك لا أود جعلها معركتي الأولى".

لسنوات اعتبرتُ المسألة مجرد **صراع** بدتْ كلمة **معركة** هي الأكثر توفيقاً.

"كيف يُمكن حصر الضرر؟". سألتْ.

"حين تقوم الديكتاتوريات بإشعال الحروب، يكون دور أمثالنا هو إشعال حروب ثقافية مضادة ضد الديكتاتوريين هدفها تحليل الأفعال والنتائج من أجل المحافظة على اتزان المجتمع، لذا لا بد من الاعتراف أولاً بوجود الضرر".

"أيمكن أن يقع مثل هذا الاعتراف؟".

"المهم هو خلق واقع يفرض مثل هذا الاعتراف".

"أي واقع؟".

"إننا نخاطب الناس. أنت بالمسرح وأنا بالكتابة. من بين الناس هناك الحكام. إنهم يُدركون بأننا ضمن معركة حقيقية من أجل **حيازة الواقع**. المجتمع والناس".

"أيمكن خلق حكام جدد بما إنهم من الناس".

"حاولتُ لسنوات فعل هذا، استهدفتُ الحكام مباشرة، من أجل خلق ما يمكن تسميته فيما بيننا بالحكام الجدد، فشلتُ في ذلك. بعدها بسنوات عرفتُ بأنني غيرتُ الناس جزئياً، نقص هذا التغير خلق واقعاً مشوهاً استفاد منه **الحكام الجدد**".

كان هذا – الحوار القديم – بداية **نواة سيناريو** الذي كتبه الفيلسوف – من أجلي – إنني أتذكر هذا بشكل جزئي. فيلم عن نهاية جندي روماني، ناجي وحيد خلال إحدى الحملات في الصحراء الليبية، يجد نفسه أمام عالم مبني من ذكرياته، عالم فقده لأجل أمجاد روما، حين يُدرك هذا يشرع في محاكمة الإمبراطورية، ليتوصل لنتائج مهمة يموت قبل أن يكون بوسعه اطلاعها على أحد. أثناء عرض الفيلم اقتحمتْ مجموعة من رجال الأمن، صادروا كل شيء، قضيتُ – بصحبة جميع أفراد طاقم العمل – في المعتقل السياسي أسبوعاً قبل أن ينجح الفيلسوف بإخراجنا، بفضل أصدقاءه في

المناصب العليا.

كانتْ الساعة تشير إلى الثانية عشرة – منتصف الليل – حين دخلتُ شقتي. لا شيء أكثر أهمية من هذا الفعل اليومي. العودة. جلستُ على المقعد، كان على الطاولة مجموعة المجلات التي تتضمن الحوارات الأمريكية. دون وعي مني، رفعتُ هاتفي وقمتُ بالبحث عن رقم الفتاة. اتصلتْ، رن الهاتف عدة مرات قبل أن تجيب.

"أخبريني ماذا تعملين؟".

"حقاً تريد أن تعرف؟".

"نعم، يهمني ذلك".

بالرغم من أن قلبي كان يدق – توقاً – مثل المراهق، إلا إنني كنتُ جاداً.

تمتْ